

كان على طرف لسانى

كل عام، تصدر كتب جديدة تُعدُّك «بذاكرة ممتازة» فى عشرين يوماً. وبرغم هذا فإن ملايين الطلبة يرسبون فى امتحاناتهم، إما لأنهم لا يُعدُّون أنفسهم للاحتفاظ بالمواد التى يدرسونها فى ذاكرتهم، أو لأن ذاكرتهم تتخلى عنهم عندما يواجهون ممتحنينهم.

أعداد ضخمة من البشر يشكون من أنه ليست لهم ذاكرة. ولكن فئة قليلة جداً من الناس يشكون من ذكائهم!.. هل لاحظت ذلك؟. هذه العبارة متناقضة فى ظاهرها، لكنها قد تكون صحيحة، لأنه إذا لم يكن هناك من هو مسئول عن ذكائه، فإن كل شخص يكون مسئولاً إلى درجة ما عن ذاكرته، التى هى - بالنسبة لأشخاص كثيرين - تشبه حقلاً تركه الحُرَّاث بعد حرثه لينال قسطاً من الراحة.

هناك بالتأكيد بعض الذاكرات فوق العادية. ففى البرامج التليفزيونية التى تُجرى فيها امتحانات سريعة موجزة، يصفق الجمهور للمتنافسين الذين يجيبون - من الذاكرة - على الأسئلة المطردة الصعبة. هل هى ذاكرة مذهلة كما تبدو فعلاً؟ كلا.. على

الإطلاق. فبخلاف حالات استثنائية قليلة، كلنا نستطيع أن نكتسب ذاكرة ممتازة.

ما هي الدوافع التي تسنح للمتسابقين؟ إنها الجوائز، النقود، التصفيق والإعجاب.. إلخ.. كذلك التحمس، الذى يدفع الناس إلى دراسة تفاصيل الموضوع الذى يستحوز على خيالهم.

نريد أن نؤكد هذه النقطة.. إنك لن تستطيع أن تملك أية «ذاكرة» جديدة بهذا الاسم بدون اهتمام حقيقى. وكقاعدة عامة، إننا نتذكر فقط ما يروقنا.

أناس كثيرون يشكون من أنه ليست لديهم ذاكرة، وأنهم لا يتحققون مما يقولون. لو أنهم فاقدوا الذاكرة حقاً ما استطاعوا أن يعيشوا. فإن الذاكرة هي التي تمكننا من أن نقرأ، ونكتب، ونجرى العمليات الحسابية وننمى في أنفسنا آلاف العادات اللاواعية. وبدون ذاكرة، لا يمكن أن يكون لدينا إدراك أو فهم. لأننا في كل لحظة سوف ننسى ما حدث في اللحظة السابقة. لذلك فإننا في كل لحظة من حياتنا ندرب ذاكرتنا.. سواء شئنا أم لم نشأ. إذن فلماذا لا نذهب في هذا التدريب إلى مدى أبعد، بحيث نكتسب ذاكرة تزداد طواعية باطراد؟

إن الذاكرة تشبه العضلة. إذا دربناها فإنها تنمو وتزدهر، وإذا لم نرعبها ونعن بها، فإنها تذوى وتضعف. أناس كثيرون يظنون أن

الذاكرة «هبة» مقصورة على أفراد قليلين، حباهم بها الله. ويتخيلون أنها صفة مميزة، كل منا يملكها أو لا يملكها بدرجة أكبر أو أقل.

يجب أن نؤكد هنا.. أن الذاكرة لا تأتي من القمر. إن عملها وقدرتها يتوقفان - قبل كل شيء - على الصحة الجسدية والعقلية. ليس علينا إلا أن نفكر فقط في الامتحانات التي أخفقت من خلال العصبية والإرهاق.. إلخ، وحيث تكون المادة لدى التلاميذ عند أطراف أصابعهم، وإذا واجهوا ممتحنينهم، يملكهم الرعب، ويعوق شخصيتهم رد الفعل الانفعالي، وتصبح الذاكرة كهفاً مظلماً لا ينبثق منه شيء.

وهذا يبرهن على أن الذاكرة تعتمد على العمل الإجمالي للآلة البشرية، وأن تدريب ذاكرة إنسان تعنى تدريب شخصيته كلها. عندما نكبر، تصبح الموضوعات المطلوب دراستها أكثر عدداً. وكثير منها لا يكون مثيراً على الإطلاق. فإذا كان الأمر كذلك، فماذا يمكن أن نفعل - مع ذلك - كي نتذكر؟ - إن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن ندرب ذاكرتنا في دأب وصبر، يوماً بعد يوم. هل هذا أمر صعب؟ كلا على الإطلاق. هل هي مهمة طويلة؟ إن طولها لا يحتاج لجهد استثنائي. هل النتائج مضمونة؟ نعم.. مضمونة تماماً.

إن الذاكرة حيوان صعب المراس، يجب أن نحافظ على سيره في الطريق الصحيح. والذاكرة آلة يجب أن تُدار برفق. ويجب أن تُصان.

إن تنمية ذاكرتك تعنى تنمية قدرتك على الفهم، وتنمية قدرتك على التمييز والمقارنة، وتنمية قدرتك على التركيز، وعلى إيجاد هدف فى الحياة، والبحث عن معنى لكل فعل تؤديه.

إن الغرض من هذا الكتاب، هو مساعدتك على تنمية موهبة طبيعية يملكها الجميع، ولكن كثيرين يسمحون لها أن تبقى معطلة غير منتجة.

هذا الكتاب أيضاً ينفذ توضيح أن الذاكرة ليست بقرة مقدسة، موقوفة على فئة قليلة من العباقرة، ولكنها فقط مثل ذلك الحيوان صعب المراس الذى ذكرته، والذى لا يحب شيئاً أكثر من حبه للشرود.